مناقشات

حول مشروع د. حنفي للتجديد

محمد كامل الخطيب

في مشروع الدكتور حسن حنفي «التراث والتجديد» يتداخل المشروع السياسي مع المشروع المعرفى تداخلا يشير الى مأزق، ويكشف عن منهج قديم يستعاد تحت وهم التجديد او محاولته، فالمشروع السياسي لدى د. حنفي يطمح الى النفاذ الى معتقدات الجماهير، وكشف اصول هذه المعتقدات، فى سبيل اعادة هذه الجماهير الى جوهر معتقداتها، هذا الجوهر الذي علاه الصدأ وغبار القرون، وتلك هي سبيل الدكتور حنفي لتغيير الواقع والمجتمع، تلك هي الطريق التي يراها صاحب المشروع لتجاوز مشكلات التخلف، ومن هنا فالمشروع المعرفي يريد أن ينظّر ويمنطق، بل وان يتعقل ويعي هذا المشروع السياس، ان يعطيه مشروعيته ومنطقه الداخلي، لكن المشروع المعرفي، يفقد وهو يبني نفسه، اى اثناء التنظير، مصداقيته العلمية، يفقد معرفيته، ويتخلى عنها لصالح المشروع السياسي الذي يعود ويقع اسير تناقضات المشروع المعرفي كما سنحاول ان نبين:

من المعروف ان المشروع المعرفي، اى مشروع، وبما هو مشروع معرفي، يريد الحقيقة بمعنى العلم، بينما المشروع السياسي، وبما هو مشروع سياسي، يتعامل مع الوقائع والاحداث والتوازنات ونسبة القوى، يتعامل مع الراهن، وفي محاولة الدكتور حنفي، يكتسب المشروع السياسي مشروعيته وتسويغه، بل ونقطة ارتكازه وانطلاقه من بؤس الراهن الذي نعيش، اما المشروع المعرفي فيكشف في «التراث والتجديد» وجها آخر قد يكون صورة لمأساة التخلف التي نعاني، والتي يحاول المشروع السياسي تجاوزها.

عند الدكتور حنفي يتجابه هذان المشروعان وهما يحاولان الاتحاد والتضافر، وفي محاولتهما الاتحاد، وفي تنافرهما الواقعي، يشخصان واقعا ويكشفان فكرا، بل وازمة فكر يحاول ان يصارع الراهن بسلاح الماضي، فيقع صريعا، يقع صريع تناقضات المشروع الداخلية، وعدم اتساقه المعرفي والنظري.

يهدف مشروع الدكتور حسن حنفي الى ((اعادة بناء علم أصول الدين التقليدي كايديولوجية ثورية للشعوب الاسلامية تمدها بأسسها النظرية وتعطيها موجهات السلوك)) ص/٧/ المقدمة..

هذا هو المشروع المعرفي، اما غايته فهي ان يكون نظرية للعمل، وموجها للسلوك في سبيل اعادة بناء الانسان وعلاقته بالارض مما يكفل ازالة العثرة التى تتحطم عليها جهود البلدان النامية فى التطور والتنمية، ذلك ان ((الثورة الصناعية والزراعية في البلاد النامية لا تتم الا بعد القيام بثورة انسانية سابقة عليها وشرط لها)) ص/ ١١/.

وفي سبيل بناء هذا المشروع، وعلى طريق تحقيقه، يريد الدكتور حنفي تجديد التراث، بالعودة الى المنابع الاساسية للتراث، الى جوهره، وجوهر التراث فيما يرى الدكتور حنفي هو الوحي معرفيا، ودين الجماهير او شعورها عمليا، وخلال هذه العودة او معها يريد المؤلف ان يعطي تفسيرات جديدة للتراث والوحي والدين عن طريق «الفهم بالحدس المباشر للنصوص المحكمة» ص/١٢٧/ او قل يريد ان يجلو عن هذه الموضوعات غبار السنين الذى تراكم عليها سواء بفعل القرون او بتأثير الحضارات الاخرى، راسما سبل تحقيق ذلك، عبر طرق التجديد التى يقترحها ومحققاً او متابعا تحقيق مهمة الفقهاء التاريخية «التي قام بها هؤلاء خير قيام» وهذه المهمة هي ((انهم في كل عصر نفضوا عن النص ما علق به من شوائب حضارية صورية او مادية، بيئية او مزاجية، ورجعوا الى النص الخام يحرصون على معناه بكل ما فيه من تصوير وتخييل فالنص ذاته، ضمن من كل عمل حضاري عليه» ص/ ١٢١/.

هذه المهمة الفقهية المعاصرة، وذات البعد السياسي والمعرفي، اى نفض الشوائب الحضارية عن النص / - التراث - الوحى / هي ما يندب الدكتور حنفي نفسه لها، وهي المدخل الى مناقشة المشروع، بل هي اساس تناقضات المشروع الداخلية، فصاحب المشروع يتعامل مع التراث كمعطى ثابت، اساسه وجوهره الوحي الذى يضعه المؤلف خارج نطاق النقاش، وبهذا فالدكتور يصادر على المطلوب منذ البداية، وليس من الجدي مناقشة هذه النقطة، لان الدكتور حنفي يرفض مناقشتها، لكن اذا كان الدكتور يرفض مناقشة الوحي ومصدره، ويعتبر ذلك حواراً بين الصم، فللقارىء الحق ان يرفض هذا المنطلق بالقوة نفسها التي يتمسك بها الدكتور حنفي، هذا اذا كنا نضع في اعتبارنا ضرورة علمية المشروع المعرفي وليس «ضرورات» المشروع السياسي.

بعد التأسيس بالوحى يتقدم الدكتور حسن حنفي ليهاجم التاريخ ضمنياً فالتاريخ لا يفعل شيئا سوى مراكمة الغبار على هذا الجوهر الخالد - الوحى -. واذا كانت الحقيقة المطلقة تكشف عن نفسها لدى هيجل عبر احداث التاريخ ووقائعه فان هذه الاحداث والوقائع التارخية لا تفعل شيئا لدى الدكتور حنفي سوى الابتعاد عن الجوهر الصحيح، عن الوحي، لا تفعل شيئا سوى ردم الوحي بالغبار، وفي سبيل اعطاء الوحي ديناميكية يفتقدها في مفهومه ومنطوقه، كوحي، اى كمعطى ذى مصدر قبلي، سرمدي، فان الدكتور حسن حنفي يلجأ الى «اسباب النزول» للتذكير بأن الوحي أتى موافقا لحاجات الجماعة وضرورات الواقع، لا بل ان الوحى كثيراً ما كان ينزل مؤيداً للوقائع التى حدثت كما يذكر الدكتور حنفي، وهنا يتساءل القارىء:

كيف يستطيع منطق الثبات والاطلاق - الوحي - ان يتناسب مع منطق التغيير والحركة - اسباب النزول، او واذا كان الوحي قد نزل كاستجابة يومية للاحداث والوقائع فما الذى يعطيه صفة الديمومة والصحة المطلقة والمرجعية؟! ما الذى يجعله حكما ومرجعا لكل الوقائع التي تأتي طالما كان نتجة واقعة محدة ومشروطة بظروفها؟ ثم اذا كان الوحي عاماً وانسانياً وكامناً في أساس كل الحضارات، كما يرى الدكتور حنفي، فلماذا الاقتصار على الوحي الاسلامي في دعوة العودة، لماذا الانطلاق من اللحظة الاسلامية تحديداً اذا كان للوحي مثل هذا الاطلاق، مثل هذه الديمومة مثل هذه العالمية؟!

مـــع الوحي يطرح الـــدكتور حسن حنفي «الشعور» باعتباره نقطة البدء اليقينية التي ليس قبلها شيء، وكل شيء بعدها يكون من خلالها.

((والشعور ايضا جزء من بيئتنا الثقافية المعاصرة التي انطبعت بطابع الثقافات المعاصرة واصبح موضوعا شائعا. لقد استطاعت الحضارة الاوربية بعد نضال دام اكثر من أربعة قرون إثبات الإنسان والشعور الإنساني كنقطة بدء يقينية ليس قبلها شيء، وكل شيء بعدها يكون من خلالها. وهذا هو معنى الكوجيتو الديكارتي واستمرار النضال باسم الشعور حتى تأكد مرة ثانية في القصدية عند هوسرل. وبعد عصر الترجمة الثاني الذي بدأ لدينا منذ قرنين اصبحت لغة الشعور متداولة وصار بعد الشعور شائعا. فالشعور وارد من التراث والتجديد سواء بسواء. لغة الشعور لغة شائعة ومعروفة وموجودة في المخزون النفسي عند المثقفين المعاصرين... الخ) ص/١١٦/.

اذن الوحي والشعور هما الاساس، وباستنتاج بسيط يمكننا الوصول الى نوع من الحلولية الصوفية لدى الدكتور حنفي، فالوحي يصبح حالاً في البشر، ويتمظهر كشعور، واذا لم يكن الأمر كذلك حدث تناقض او خلاف بين الشعور والوحي، وهذا ما لا يرتضيه الدكتور حنفي حتماً، لا بل انه يشير في موضع آخر الى ان الوحي عامّ في ((كل الحضارات)) تماماً كالشعور العام المشترك بين البشر.

«والعمليات العقلية التي حددت طبيعة الظواهر الفكرية هي وراء بناء العلوم، وهي عمليات عقلية واحدة تنشأ في كـل حضـارة تبـدأ من معطـى مركزى واحـد هو الوحي وبمعرفتها يمكن اعادتها من جديد ابتداء من العصر الحاضر)). ص/ ١٢٧/.

هنا يعم الدكتور مشروعه، مثلما يعم الوحي والشعور ويسحبها على كل الحضارات، ولا ندري إذا كان الدكتور جادا في تقريره ان العمليات العقلية في كل حضارة تنشأ من الوحي، فالانطلاق من الوحي قد يصح على الاديان الثلاثة لا على الحضارات، واذا لم يكن ذلك، فأيّ وحي تنطلق منه الحضارة الصينية او الإغريقية، او حضارة القرن العشرين؟ اننا نتساءل هذا السؤال على الرغم من ان الدكتور يحاول ان يفرق بين الوحي والدين، لكن تلك محاولة متكلفة، وسياسة، بمعنى غير معرفية، غير علمية، في نظرنا على الاقل. بعد ذلك نتساءل: كيف يمكن تخصيص وحي وشعور حضارة معينة والتكلم عن العودة الى تراثها تحديدا وإنكار الحضارات الاخرى وتراثها طالما كلها من مصدر واحد هو الوحي بإطلاقه، لماذا الاقتصار على الوحي الاسلامي واعتباره بديلاً

للوحي المطلق الى درجة تقرير أن « الحضارة الاسلامية قادرة على تمثل ثقافات الشعوب المجاورة في قالبها لانه القالب الأوسع شمولا والاكثر عقلانية. » ص/٨١/.

لماذا الهجوم على الحضارة الأوروبية اذا كان الوحي واحداً واذا كان ((الذهن الانساني واحد والحقائق واحدة)) ص٨١/ وما معنى معزوفة صراع الشرق والغرب - حضاريا - في هذه الحالة؟ تلك تساؤلات عن تناقضات في صميم المشروع، وربما تكون الاجابة عليها كامنة في بنية مشروع الدكتور حنفي، اى في تداخل المشروع السياسي بما يتطلبه من ايديولوجية تسويغية، مع المشروع المعرفي بما يتطلبه من علم، فهذا التداخل، وهذه المحاولة للجمع والتأليف هي السبب في هذا التناقض الظاهر، ذلك ان مشروع الدكتور حنفي ينطلق سياسيا من حقيقة وقوع المجتمعات المختلفة تحت هيمنة الرأسمالية (الغرب) مما ادى الى نشوء وسيطرة ثقافية ثقافة كولونيالية تائهة تعبر عن الاوضاع التاريخية لهذه المجتمعات، تعكس ماضيها من جهة وحاضرها المستلب من جهة اخرى، وما من مشروع سياسي لتغيير واقع واوضاع هذه المجتمعات الا وينطلق من هذه الواقعة - الحقيقة لكن تحليل هذا شيء والحديث المكرور عن ((صراع الغرب والشرق)) شيء آخر، بل انه ليختلف تماما عن اقامة مجابهة بين الشرق - والوحي - وبين الغرب - الرأسمالية - العلم - الاشتراكية - الماضي، الحاضر... الى آخر هذه الثنائيات التي يتهم الدكتور حنفي الرأسمالية (اوروبا) بابتداعها في حين انها في اساس كل مفهوم ديني (الله - الشيطان - الجنة - النار - المؤمن - الكافر - الطاهر - النجس - الحلال - الحرام... الخ) بل ان التفريق بين الشرق والغرب بحد ذاته هو مفهوم ثنائي.

وهكذا فالمشروع المعرفي - النظري - للدكتور حنفي ينكمش حتى يصبح خادما للمشروع السياسي ومسوغا له بدل ان يكون منطقا داخليا، ومنهجا للبحث والمعرفة، وسبيلا للوصول الى الحقيقة الى العلم، وهكذا نخسر المشروعين معا بخسارتنا لمشروع التجديد اجمالا.

ان هذا التدخل والخلط بين المشروعين، بين مستويي التحليل السياسي والمعرفي، قاد الدكتور الى تناقضات بل ومغالطات اخرى نعرض اهمها، وهو ما تجلى في اختلاط مستوى التحليل الفلسفي بمستوى التحليل اللغوى، وفي استعمال المصطلحات بأكثر من معنى، فمثلا يقول الدكتور « المثالية بطبيعتها دعوة الى الثورة، للتغيير، خاصة اذا كانت تيارا للشباب. فقد فهمت المثالية خطأ عن قصد، وذلك باتهامها بأنها انعزال عن الواقع، وقضاء عليه وتحويله الى فكر في مقابل الواقعية الملتزمة بالواقع، والبادئة منه، والتي تعيش عليه، في حين ان العكس هو الصحيح، فالمثالية حركة رفض للواقع، ومناداة بواقع افضل، وثورة على الواقع القائم وتطلع نحو المستقبل، في حين ان الواقعية تسليم بالامر الواقع، وابقاء على الأوضاع القائمة، وفهم لما هو موجود دون وضع احتمالات اخرى لما يمكن ان يكون موجودا. » ص/ ٤٧/.

ليس لمثلى ان يشرح لدكتور في الفلسفة الاختلاف بين المثالية كمصطلح يدل على مدرسة فلسفية وفكرية معينة، أياً كان الموقف منها، وبين المعنى اللغوي او الشعبي الشائع للكلمة، فالدكتور يعرف تماما الاختلاف، ولننتقل الى مثال آخر يستخدم فيه الدكتور حنفي « الشعور » كاصطلاح يعنى به المصدر الاول والمباشر للمعرفة.

« والشعور هو وصف حقيقي للمعرفة وللوجود إجابة على سؤالي: كيف يحصل الانسان على معرفة، وكيف يعيش الوجود، لا شيء في العالم الخارجي يمكن ادراكه ومعرفته الا من خلال الشعور » ص/ ١١٥/ هنا يستخدم الدكتور الشعور بمعنى الاحساس المادي.

ثم يعود الدكتور ويستخدم الشعور بمعنى آخر يقول: « والشعور مطلب من مطالب العصر، وكثيراً ما نجد في ادبنا المعاصر دعوة الى الاحساس بما يدور حولنا، ونداء لليقظة الداخلية وخطابا موجها مباشرة الى شعورنا ((لاحظ الشعور موجه الى الشعور - والشعور مطلب وليس حقيقة واقعة، ولنتابع)) يقظة الشعور، وهو هدف المصلح وغاية المجدد، أمل المفكر، وبغية الثائر، وهوان يعي الانسان موقفه في الحياة حتى يشعر بذاته وبما حوله وبأبنية الواقع التي هو غارق فيها، ومدى بعدها عن الابنية المثالية في الوحي، وعندما نعاني ازماتنا وهزائمنا وانتصاراتنا فاننا نعانيها بالشعور » /١١٥ - ١١٦/.

واضح تلاعب الدكتور بمصطلح « الشعور » والانزياح به من المستوى الفلسفي المعرفي - مصدر المعرفة - الى المستوى النفسي. والادبي، ثم استخدامه خطابيا انشائيا، لا علميا، فالشعور كمصدر للمعرفة، هو غير « الشعور » بمعنى الاهتمام بالواقع، أو الاحساس به، ومن الطريف ان الدكتور اذ يستخدم المعانى الشائعة رديفا او بديلا او عكسا للمصطلح المضبوط يتساءل مستنكرا: فمنذ متى كانت المعاني الشائعة اساسا للمعاني المضبوطة، وبحكم العرف استعمال اللغة؟ « ص/٥٣/ وعلى كل فاننا لا نريد الخوض هنا في موضوع اللغة، ونظرة الدكتور لها، فذلك موضوع آخر، وان كان احد مظاهر نظرة الدكتور حنفي ومفهوماته فان يخرج عن

جوهر مناقشتنا وهدفها. اشكالية اخرى يثيرها الدكتور حسن حنفي تتعلق بمفهومه عن الوحي والمحافظة على الاصول او العودة اليها، ورفض التأثيرات الخارجية، وتجديد التراث من داخله والدكتور في هذه النقطة متفق مع ادونيس وربما الدكتور طيب تيزيني، وهنا يتساءل القارىء: كيف يمكن تجديد التراث من داخله، اليس هذا تكراراً للتراث لا تجديداً له وكيف يريدنا الدكتور حنفي ان نعتقد ان بالامكان تجديد التراث من داخله وهو يقول «والتجديد هو اعادة قراءة التراث بمنظور العصر» ص/١١٢/ ما هو منظور العصر ان لم يكن منظورا من خارج التراث، زمنيا على الاقل، كيف يريد لنا الدكتور أن نصدق انه يجدد التراث من داخله وعدته وادواته في هذا التجديد مفهومات مثل: التحليل - التركيب - الطبقات، الحزب السياسي، البروليتاريا. أليست هذه مفهومات من خارج التراث؟ بل ان الدكتور يصرح ((..... اعادة بناء للتراث من داخله بما اتيح للباحث من وسائل عصرية)) ص٥١/ ما هذه الوسائل العصرية؟!اليست الوسائل العصرية غربية؟! بل ان الامر ليبلغ بالدكتور الذى يريد تجديد التراث من داخله ان يظبط يضبط معنى مصطلح يورده عن طريق كلمة من خارج التراث ((وظهور الانسان العامل)).

يريد الدكتور حسن حنفي ان يجلو عن الوحي غبار التاريخ، اي ان يعيدنا الى الوحي، الى النبع، وهنا نتساءل عن مضمون هذه الرؤية التي ترى في التاريخ والتأثير الخارجي فسادا للوحي وللجوهر، افسادا للمصدر اليست هي النظرية الغيبية، التقليدية التي تبحث عن المثل الاعلى في الماضي لا في المستقبل، متناسية تاريخ مفهوم التقدم؟! امثل هذه الرؤية الفلسفية التي تلجأ للماضي يريد الدكتور حسن حنفي انشاء ايديولوجية للجماهير الشعبية، وتكون حزب طليعي يقضي على التخلف، ويحرر الارض؟ وهل تستطيع هذه الرؤية حقا حل مشكلاتنا المعرفية والسياسية والاجتماعية، مشكلات تخلفنا عن طريق العودة الى الماضي؟!، أليست مشكلاتنا نتيجة واقع جديد لا علاقة له بالماضي وحلوله؟ أصحيح ان التاريخ هو فساد واننا كلما سرنا الى الامام مبتعدين عن الوحي، تلوثنا، وفسدنا ولهذا لا حل الا بالعودة الى الوراء، والانسلال من التاريخ ((رحم الله الامام السخاوي «حين اعلن»: ((التوبيخ لمن ذم التاريخ)).

اخيرا ما الذي يؤلف بين هذه التناقضات وينظمها، هي واخرى غيرها كثيرة آثرنا عدم الدخول في تفاصيلها؟! الحقيقة ان ما يبدو تناقضا إن هو الا مضمون خفي لمنطق مضمر، متناقض في ذاته، يحاول عبثا استعادة تلك المحاولة الشهيرة، وربما المخفقة والتي وقعت الفلسفة الاسلامية ضحيتها، الا هي «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال» والدكتور حسن حنفي، حيث يريد تجديد التراث لا يفعل غير اعادة احياء هذه المشكلة عبر تعبيرات معاصرة، مستبدلا المشروع السياسي بالحكمة او العقل، والمشروع المعرفي بالشريعة او الوحي، لكنه في استعادته على ضوء مشكلات الراهن، وتناقض المشروع وعبثيته، انما يكتب لنا، ولنكن شجعانا في مواجهة هذه الحقيقة «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من انفصال».

محمد كامل الخطيب